

أثر اللسبان في اللغة الإسبانية الأستاذ سامي الحفار الحزبري (دمشق)

الأستاذ سامي الحفار الحزبري
(دمشق)

واطلق عليهم اسم : « المدجنون » Mudéjares وتولد من بقائهم فن جديد في الهندسة والصناعة اليدوية سمي : المدجن Mudéjar لذا لا نستطيع ان نقول بان ال اثر العربي في اسبانيا قد زال بزوال سلطانهم عليها .

وقبل ان نتحدث عن اثر الموريسكوس والمدجنين في اللغة الاسبانية في مختلف بقاع الاندلس لابد لنا من التحدث عن طبقة « المستعربين » Mozárabes وهم ابناء البلاد اللذين تأثروا بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية ابان الحكم العربي في اسبانيا . لقد حافظ هؤلاء على معتقداتهم الدينية غير انهم تعلموا العربية وبنوها في حياتهم وكانوا يتكلمون كذلك لغة بلادهم الاصلية المشتقة من اللاتينية والتي كانت تصرف باسم الرومانسية وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم الفيزقوطيين Romane ، وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم الفيزقوطيين Visigodos وهم قوم من الجرمان احتلوا اسبانيا في القرن الخامس الميلادي قادمين من ايطاليا وفرنسا وبنوا لغة الرومان الدارجة فيها وادخلوا في تلك اللغة اللاتينية الشعبية بعض تعابيرهم واسمائهم ومفرداتهم ، ولكن حصيلة ما قدموه لتفدية اللغة الاسبانية لا تقارن بما قدمه العرب اليها من

لا ريب في ان اثر اللسان العربي في اللغة الاسبانية من اهم آثارنا في اسبانيا واكثرها خلودا ، كما انه دليل قاطع على ان الحضارة العربية الاسلامية وجدت في الاندلس الارض الخصبة لازدهار افراسها . فاذا تجلت تلك الحضارة في العلوم والفنون والآداب ، في الهندسة والتجارة والزراعة والصناعة ، ومنحنا تراثا عربيا اندلسيا افادت منه الانسانية ، فلقد كان اللسان العربي خير اداة للتعبير عن تلك الحضارة خلال تسعة قرون تقريبا . فالعرب عاشوا في الاندلس ثمانية قرون الا قليلا ابان حكمهم لها ، منذ دخول طارق بن زياد الى شبه الجزيرة الايبيرية سنة 711 م حتى خروج آخر ملوك بني الاحمر من غرناطة سنة 1492 م . ولكن من الثابت ان ال اثر العربي في بعض مناطقها قد استمر حتى مطلع القرن السابع عشر ، وذلك لان نصف مليون عربي اختاروا البقاء في اسبانيا بعد ان استرجعها ملوكها لشدة تعلقهم بها وبارضها جبلا بعد جبل . وقد عرف هؤلاء باسم موريسكوس Moriscos وظلوا يتكلمون العربية ويكتبونها حتى تم اندماج بعضهم بالاسبان نهائيا لغة ودينا ، في حين هاجر البعض الاخر الى الشمال الافريقي . فالموريسكوس هم العرب الذين تنصروا بعد ان استرجع ملوك الاسبان بلادهم من المسلمين العرب ، اما الذين لم ينصروا وآثروا البقاء في الاندلس فلقد اضطروا للموافقة على التسمية للملك الكاثوليك

لسانهم الفنى اذ انها لا تتجاوز مئة كلمة فى حين ان ما دخل اليها من العربية تجاوز اربعة آلاف كلمة .

ويقول العالم الاساذ رافائيل لاييسـ Rafael Lapesa فى كتابه « تاريخ اللغة الاسبانية » ان العامل العربى فى تكوينها كبير الاهمية ويأتى مباشرة بعد العامل اللاتينى . ونحن نرى فيها اليوم عددا كبيرا من المفردات التى تبثدي بال التعريف . وهذا ما برشدنا فى احيان كثيرة الى اصلها العربى غير ان قليلا منها بقي على حاله الاصلى كتابة ولفظا مع انه حافظ على معناه الاصيل لما اصاب تلك المفردات العربية الاصل . سواء منها المتدنة بال التعريف او غيرها . من تحريف لدى دخولها الى اللغة الاسبانية . والسبب فى ذلك التعريف منطقي وواضح لما يوجد من فوارق شاسعة بين حروف العربية وحروف اللاتينية وبين جرس الاولى وجرس الثانية واسلوب لفظها . وبين ذوق الاذن الاسبانية وذوق الاذن العربية . فلكل قوم فى لغاتهم ما الفوا وما توارثوا لذا اختلفت وسائل التعبير واللهجات واللغات . ولذا كان لابد للاسبان من سكب المفردات العربية . واسماء الاعلام واسماء المواقع الجغرافية والمدن التى اطلق عليها العرب اسماء عربية فى قالب سامى يتناسب مع ذوقهم من جهة ومع امكانات لغتهم الاصلية واحرف هجائهم من جهة ثانية . فنحن نجد ان كلمة « الساقية » قد اصبحت بالاسبانية (ايكيا : Acequia ، والقاضي Alcaide والمصرة Almazaras والضبعة Aldea وذلك لعدم وجود كل من القاف والعين بالابجدية اللاتينية ، ويلاحظ هنا فيما اوردت من امثلة ، فى كلمتي الساقية والضبعة ان حرف الالف المفتوحة قد اصبحت (ايفا مائلة) اي انه قد لحقت به الامالة ، فالامالة شامت كثيرا فيما انتقل من العربية الى الاسبانية والبرتغالية وهي ظاهرة فى طائفة كبيرة من الكلمات والاسماء . ثم نجد ان كلمة « حتى » اصبحت Hasta ، وكلمة الوزير Alguacil وقلعة ابوب Calatayud ومدينة سالم Medinaceli ووادي الحجارة Guadalajara ووادي الكبير Guadalquivir الخ . وما يلاحظ كذلك ان الاسماء العربية والمفردات المسكنة فى آخرها لم تتفق والذوق الاسبانى فتحرك آخرها لدى اقتباسها بحرف صوتية مثل (T) او (او) او (اي) . بحيث اصبحت السوق : Zoco .

وفلان : Fulano ومولد Muladi ومعناها المسلم الاسبانى . غير العربى . وقد عرف الاسبان الذين اسلموا اiban الحكم العربى باسم (Muladies) وباطل : Baladi و Balde والزيت : Zeite والجبر Algebra ومجد : Mezquita ومسكين : Mezquino الخ ... والامثلة اكثر من ان تحصى . وكذلك حصر الاسبان اسماء المدن والقرى والقلاع التى شيدها العرب فى بلادهم . فى شبه الجزيرة اليبيرية . كما اصاب التعريف اسماء بعض الأنهر والمواقع الجغرافية التى اطلق عليها اسلافنا اسماء عربية ومثالا لذلك نرى ان مدينة مجريط تحولت الى « مدريد » ومدينة سالم صارت Medinaceli ومرسية : Murcia و« بني سالم » فى جزيرة ميورقة امابوركا ، Benisalem واليابسة : Ibiza وهو اسم احدى جزر الباليار ومدينتها الرئيسية . وقلعة النور : Calatañazor . وقلعة امرج : Calatarage ونهر وادي العين : Guadalén ووادي الرملة : Guadarrama ، وغيرها كثير . وهذا ما يجعلنا نتوقف عند المرور بمثل هذه المفردات الاسماء العربية الاصل مستغربين ما لحق بها من تحريف .

ثم ان ما نقوله من التعريف الذى لحق باغلبية المفردات والاسماء العربية لدى اندماجها باللغة الاسبانية قد اصاب كذلك الاسماء الاسبانية اللاتينية لدى نقلها الى العربية ، واعني بها اسماء الاعلام واسماء المدن والمقاطعات والمواقع الجغرافية المختلفة فى شبه جزيرة ايبيريا وفى جزائرها الشرقية . فقد تعارف اسلافنا على تسمية بعضها بما يتفق وذوقهم السامى واللغوى فاطلقوا اسم طليطلة على مدينة Toledo واسم ملقة على Malaga واسم طركونة على مقاطعة Tarragona واسم قطلونية على مقاطعة Cataluña

والاهم من هذا انهم تحروا فى احيان اخرى اصل اسماء المدن القديمة اللاتينية الاغريقية (الرومانى) وشكلوا اسماءها العربية استنادا الى هذا الاصل ، فمدينة سرقطة Saragoza مثلا قد سميت كذلك عند العرب لانها كانت معروفة فى القديم باسم Coisarangusta ، ومدينة استجة (البخا اليوم Eclja) كانت فى الاصل Astigi ، وشاطبه Jativa كانت تدعى Sactabis ، اما

اشبيلية Sevilla فان اسمها العربي مشتق من اسمها اللاتيني Hispalis ، وقرطبة Cordoba من قرطب Corteb اسم القرية الرومانية القديمة التي توسعت بعد الفتح العربي واصبحت عاصمة ملك الامويين . فالامثلة في هذا الصدد كثيرة تلقى الضوء على حقائق تاريخية هامة .

ولعل جانب الاشتقاق اللغوي الذي جرى عليه الاسبان لدى تبني المفردات العربية من اهم جوانب هذا البحث ، فكما جرى العرب على اقتباس جزء من اسماء المدن القديمة حين تسمية مجريط مثلاً حيث انهم شيدوها واعطوها اسماً مركباً من كلمة « مجرى » لوفرة مجاري المياه فيها ومن المقطع اللاتيني (ايت IT) فاصبحت مجريط ، نجد ان الاسبان درجوا على تركيب مفردات جديدة في لغتهم اذ كثيراً ما اتخذت الكلمات اللاتينية معنى هريبا بعد ان اجروا عليها تعديلات مقتبسة من التركيب العربي . لقد الف الاسبان هذه المؤثرات في حقبة تعايشهم الطويلة مع العرب فشاعت على السنتهم وما زالت جزءاً لا يتجزأ من قاموس لغتهم . ونحن نعلم ان العرب عارفوا على تسمية الفنى : ابن الدنيا ، واللص : ابن الليل لان الظلام يساعد على السرقة فالف الاسبان هذه التعابير الرمزية واصبحوا يسمون اليتيم : ابن الحجر ، والمتدين : ابن الاحسان ، والسطحي : ابن يومه الخ . . ثم درجت في اللغة الاسبانية كلمة هيدالكو Hidalgo المركبة من Hilodalgo اي : ابن الخير ، واصبحت تطلق على النبلاء الذين يتميزون بالخدمات القومية والشجاعة والكرم ، وقد اشار الى تفسيرها الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم وقال انها من المفردات الاسبانية المركبة على غرار بعض الكلمات العربية . والفونسو العاشر (العالم) هو الذي حكم طليطلة بعد خروج المسلمين منها بحوالي مائة وسبعين هماً واشتهر بتكريم ائمة الفكر المسلمين والمسيحيين اي المدجنين والموريسكوس وقد قربهم من بلاطه واستفاد من علمهم وثقافتهم لترجمة مؤلفات ابن رشد وابن سينا وابن باجة من العربية الى الاسبانية . وقد شاع في مقاطعات ليون وقشتالة والاندرلس اطلاق اسماء على الاشخاص او الاسر انطلاقاً من التقليد العربي ، لذا كنا نجد افراداً من الاسبان باسم Abolmendar اي « ابو المنذر » و Abohamor اي « ابو حمود » و Almodáfar اي المظفر و Maimón اي ميمون ، كما كانوا يكونون بعض اسرهم حتى القرن

الحادي عشر باسمين مركبين اولهما هربي (ابن او بن او بني) والثاني لاتيني اسباني على غرار كنى بعض الاسر العربية ، فعرفت بينهم اسر مكناة ببني فوميث Benigómez وبينافيدس Benavides وغيرها .

وهناك في اللغة الاسبانية طائفة من الكلمات التي تبناها الاسبان وحافظوا على معناها العربي واصابها بعض التحريف ومنها : « العيب » Aleve و « حسنة » Hazaña ، كما نجد انهم صرفوا افعالا اسبانية انطلاقاً من الكلمة الاسبانية (اللاتينية اصلاً) على غرار ما كان العرب يفعلون ، وهذا الاثر واضح في كلمتي صبح ومساء اللتين تولد عنهما فعلان هما : اصبح وامسى ، اذ انسا نجدهما في فعلي : Amanecer و Anochecer

واخيراً لابد من القول بان اثر لساننا العربي كان كبيراً في اسلوب التعبير الاسباني بل حتى في اسلوب التفكير ذاته اذ ان الاسبانية تبنت عبارات عربية وجملاً يرمتها ونقلتها وترجمتها حرفياً ولفتها كقولهم : « ان شاء الله » (Ojalá) واهناك الله : (Dios le ampare) والله يحفظك (Que Dios guarde) وبارك الله بالأم التي حملتك (Bendita sea la madre que te parió) الى آخر ما هنالك من سلسلة التعابير التي لا يعرفها في أوروبا غير الاسبان ، والتي تنم عن عقلية خاصة عربية اندلسية اسبانية من اسبابها الايمان القوي وصفاء السيرة الانسانية والفة التمني والتبريك في الحديث .

واليوم ونحن نستعرض ذلك التاريخ المشترك الطويل ونتحرى هوامل الاثر العربي في اسبانيا وفي لغة الاسبان لا يسعنا الا ان نقف موقف المعجب بما نقل العرب الى الارض الاسبانية من علوم وفنون وتقاليده ، وبابنائها الاصليين الذين رحبوا بما حملته الفاتحون اليهم من الوان متعددة لتلك العلوم والفنون والتقاليد ، فكانوا خير ترجمة لها في أوروبا الغربية في القرون الوسيطة . كما يجدر بنا ان نعترف بفضل « المستعربين » : Mozárabes الذين تأثروا بالتمدن الاسلامي واللغة العربية والتقاليد اذ انهم استعربوا باختيارهم فكراً وقلباً ، وحافظوا على لغتهم وحضارتهم وتقاليدهم قرناً اثر قرن وغاروا عليها ودافعوا عنها ، واسهموا بذلك في نقلها الى قومهم ولغتهم وتراثهم الادبي والفني اولا ثم الى العالم الغربي .